المنهج الموضوعاتي، جذوره وإجراءاته.

ترافق العملية الإبداعية آليات نقدية ومنهجيات تقوم العمل الأدبي وتدفع به إلى العلن ممتحنة بذلك طرفيه السلبي والإيجابي، وقد ظهرت في الساحة النقدية،العديد من المناهج سياقية أولت اهتماما بالسياق وأخرى نسقية غاصت غفي أغوار النص، ومن بين المناهج التي أثبتت فاعلياتها في هذا الجانب واتخذها النقاد وسيلة لتمحيص النصوص؛ المنهج الموضوعاتي.

مفهوم المنهج الموضوعاتي.

اختلفت التعاريف في كيفية إدراج المصطلح الذي ظهر في حقول معرفية غربية كان أساسها الفلسفة فلقى نوعا من الضبابية وعدم الوضوح في الحقول المعرفية العربية، وللوقوف على مفهومه سندرج بعض التعاريف اللغوية والاصطلاحية.

1- عند الغرب.

يعود الامتداد المعرفي لمصطلح موضوع إلى جذور فلسفية، وقد حصرها الباحثون في ثلاثة منابع " أولها الأصول الفلسفية والنفسية، ثانيها الأصول الفلسفية الظاهرتية، ثالثها الأصول الفلسفية الوجودية، تداخلت هذه المرجعيات الثلاث لتشكل المنطلق الأساس للفهم الموضوعاتي للأدب الذي انبثق عنه تدريجيا ما يسمى بالنقد الموضوعاتي وهوما جعل روجي فايول R. Fayolle يلاحظ أن أغلب نقّاد النقد الجديد la critique nouvelle هم من الفلاسفة أو أنهم أساتذة أدب وليسوا علماء نفس"[1].

- أعلام المنهج.

- إدموند هوسرل Idmand Hussert (1859- 1938).

ظهرت معالم هذا المنهج مرافقة للفكر الفلسفي على يد الفيلسوف الألماني هوسرل " حيث استندت عليها معظم المحاولات النقدية وهذا ما لاحظه روبرت

ماجليولا R.Magliola في ما سماه تناول الظاهرات للأدب"[2]. ويرى هوسرل أن " الموضوع المختص بالبحث الفلسفي هو محتويات ومضامين الشعور وليس موضوعات العالم الخارجي... وتدّعي الظاهراتية أنها تبين لنا الطبيعة الباطنية لكل من الشعور الإنساني والظواهري"[3]. وعليه فإن الفلسفة تهتم بالجانب الشعوري أي بالوعي.

- غاستون باشلار Gaston Bachlard (1884-1962).

تأثر هذا الفيلسوف الفرنسي رائد المنهج الموضوعاتي بدراسات التحليل النفسي لفرويد ثم يونغ والنظرية الظاهرتية عند هوسرل، وهو صاحب فلسفة العناصر الأربعة (الأرض-الماء-النار- الهواء) التي تتبع مدى استفادة الأدباء في إبداعاتهم لهذه العناصر من خلال صورهم.

- جورج بولي (George Poulet 1902- 1991)

يعدّ هذا الناقد البلجيكي من أبرز أقطاب المنهج الموضوعاتي ومن أهم أ'ماله(دراسة في الزمان الإنساني) حاول فيه الكاتب الإلمام بتنظيم المكان في العمل الأدبي وبقضية التموضع.

- جان ستاروبنسكي (Jean Starobinski)

يعد هذا الناقد السويسري من أبرز نقاد المنهج الموضوعاتي والذي ركز في دراساته على موضوع النظرة.

- جان بيار ريشارد Jean Pierre Richar (1922)

من أبرز من نظروا للمنهج الموضوعاتي يتميز نقده بأنه قراءة تسعى لفهم النص ارتبط بحثه بالمنهج النفسي، لأن التحليل عنده وصفي بشكل خاص كما أنه نفسي أحيان أخرى، وأهم الخطوات عنده:

- قراءة العمل أو مجموعة أعمال الكاتب والتنقيب عن بنياتها الداخلية.
- تكوين صورة عن لا وعي الكتابة عند الكاتب.

- معاينة معادلة الصور في حياة الكاتب المبكرة.

- جان روسي Jean Roust (1910-2003).

اهتم هذا الناقد ببنية النص ويؤكد على أن " النتاج الأدبي عمل كلي، وأنّ القراءة النافعة المثمرة هي التي تفحص النص من جميع جوانبه، وترصد قواعده التي ترتكز عليها الكتابة ويلتجئ روسي إلى الفكر للبحث عن الأشكال الكامنة في ثناياه لأنها الموحية بالبنيات الأساسية للخيال المبدع"[4]. فالنص عنده بنية متكاملة والقراءة كذلك يجب أن تكون متكاملة من خلال ربط أجزاء النص مع بعض ولا يمكن تقسيم كل جزء على حدة وإعطائه معناه الخاص، وعلى القارئ إدراك القيمة المهيمنة على النص للوقوف على أغواره، عندما يدرك النقطة المركزية، كما يدرك أن لكل بنية خيالية بنية شكلية.

2- عند العرب.

تأخر ظهور مصطلح المنهج الموضوعاتي في الحقل النقدي العربي عن قرينه الغربي، مثله مثل باقي المناهج النقدية التي أرست دعائمها في البحث النقدي الغربي، غير أن أولى علامات هذا النقد ظهرت في البحوث الأكاديمية ووضعت على طاولات الدراسة في أطاريح جامعية أشار إليها عبد الكريم حسن في فقرة من كتابه " النقد الموضوعاتي" بقوله " أشهرها ثلاث نوقشت منها اثنتان بالسوربون في فترتين متقاربتين، الأولى دكتوراه للسلك الثالث؛ وهي رسالة كيتي سالم أخت الروائي جورج سالم بعنوان موضوعاتية القلق عند كي دي موباسان بإشراف جون بيار ريشار نوقشت عام 1982، والرسالة الثانية دكتوراه دولة هي لعبد الكريم حسن بعنوان الموضوعية البنيوية: دراسة في شعر السياب سنة 1983، وقد كانت بإشراف أندري ميكائيل وغريماس، وهمناك رسالة ثالثة في مجال المقاربة الموضوعاتي بعنوان " موضوعاتية القدر في روايات فرنسوا مورياك نوقشت في جامعة الرباط 1971"[5] .

من هذه الانطلاقة ندرك أن عبد الكريم حسن هو المؤسس الفعلي للنقد الموضوعاتي العربي من خلال ما أنتجه في الساحة النقدية تمثلت في كتب مختلفة منها – الموضوعية البنيوية دراسة في شعر السياب– ، كتاب – لغة الشعر في زهرة الكيمياء بين تحولات المعنى ومعنى التحولات– وفي بعض التعريفات يقول عبد الكريم حسن " الموضوعاتية صفة خاصة بموضوع... والنقد الموضوعي هو طريقة في القراءة النقدية الموجهة نحو دراسة الموضوعات الثابتة لدى مؤلف معين ، لفكّ الدوافع العميقة لعالم خيالي لكاتب ما أو مدرسة ما"[6] .

– سعيد علوش.

يعد سعيد علوش من الباحثين البارزين في موضوع النقد الموضوعاتي وإن بنوا أفكارهم على من سبقوهم من الباحثين الغربين والعرب على السواء، إلا أنه أعطى حوصلة أو نتيجة توافق تصوره لهذا المنهج وجاء كتابه " النقد الموضوعاتي " متجليا في أربعة محاور:

– وضعية النقد الموضوعاتي.

– إرهاصات النقد الموضوعاتي.

– النقد الموضوعاتي بين الأصول والامتداد.

– النقد الموضوعاتي والقصيدة الحديثة.

فهذه المحاور الأربعة أبانت عن جانب نظري وأخر تطبيقي سعى من خلالها الباحث إلى وضع ركائز جديدة تكون إضافة قيمة، وأول ما بدر إلى طرحه هو إشكالية المصطلح " إن الانتقال إلى الحقل الثقافي العربي يجعلنا نتردد بين الاحتفاظ بالمصطلح كما هو في لغته: التيم– التيمية– التيماتية –theme thematique–thematism أو اعتماد التعريب الموضوعاتي – الموضوعاتية

– الموضوعاتيات وهي تعريفات يدعمها في غالب الأحيان الأصل الأجنبي، كما نجد ذلك في مقاربات عبد الكريم حسن، وجوزيف شاريم، وكيتي سالم ، وكليطو، هذا إذن ما دفعنا إلى اختيار تعريب المصطلح مع التشديد على الأصل المرجعي" [7] . ويوضح سعيد علوش نظرته إلى وحدة الموضوع بقوله " مفهوم الموضوعاتي في الحقلين العربي والغربي هو التردد المستمر لفكرة ما أو صورة ما، في ما يشبه لازمة أساسية وجوهرية تتخذ شكل مبدأ تنظيمي ومحسوس أو ديناميكية داخلية أو شيء ثابت يسمح للعالم المصغر بالتشكل والامتداد"[8].

– حميد لحميداني.

من أهم الكتب التي كانت نتاج أبحاثه ودون فيها ما توصل إليه من إضافات كتابه "سحر الموضوع: عن الموضوعاتي في الرواية والشعر" وركّز في ذلك على الموضوع أو التيمة يقول حميد لحميداني " يتجلى الموضوع في الإبداع الأدبي من خلال سحره الخاص، ذلك أنّ المبدع لا ينقاد إلى موضوعاته بملكاته الواعية وحدها، إنه على الأصح ينجذب نحوها بقوة لا يطول دائما معرفتها الخفية... وفي النص تيمات متنوعة تتناسل وتتقاطع وتتعارض وتظهر وتتوارى"[9].

– لغة جاء في لسان العرب لابن منظور أن كلمة موضوع (thème) من مادة – وضع– "فالوضع: ضد الرفع، وضعه يضعه وضعا وموضعا، وقوله في موضع آخر تواضع القوم على الشي، اتفقوا عليه، وأوضعته في الأمر إذا وافقته فيه على شيء، ووضع الشيء في المكان: أثبته فيه، والمواضعة: المناظرة في الأمر، والمواضعة أن تواضع صاحبك أمرا تناظره فيه"[1]. فكلمة موضوع لها دلالات تتمثل في النقاش والمناظرة وتبادل الآراء حول أمر ما.

المصادر والمراجع.

1- مسعودة لعريط، مفهوم المنهج الموضوعاتي في المقاربات الغربية الحديث

2- حميد لحميداني، المنهج الموضوعاتي في النقد الأدبي أصوله واتجاهاته، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية،

3- رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة.

4-سعيد علوش، النقد الموضوعاتي

5- عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعاتي

6- حميد لحميداني ، سحر الموضوع عن الموضوعاتي في الرواية والشعر

7- ابن منظور لسان العرب